غَزْوَةُ مُؤْتَةَ [١]

تَارِيخُ الغَزْوَةِ وَأَسْبَابُهَا :

قال الإمام ابن القيم رحمة الله: وهى بأدنى البلقاء من أرض الشام وكانت فى جمادى الأولى سنة ثمان ، وكان سببها أن رسول اللهﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى أحد بنى لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بُصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه رباطًا ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل لرسول اللهﷺ غيره ، وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم ، يساوى بل يزيد عن إعلان حالة الحرب ؛ فاشتد ذلك على رسول اللهﷺ حين نقلت إليه الأخبار ، فجهز إليهم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، وهو أكبر جيش إسلامى لم يجتمع قبل ذلك إلا فى غزوة الأحزاب[٢] .

تَعْيِينُ قَادَةِ الجَيْشِ وَوَصِيَّةُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَيْهِمْ :

أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ : «**إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ**» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلَى وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ ، وقد أمر رسول اللهﷺ الجيش الإسلامي أن يأتوا المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير ، وأن يدعوا من كان هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم .

وقد أوصى رَسُولُ اللَّهِﷺ إِذَا أَمَّرَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا وَقَالَ : «**اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ولا امرأة ولا كبيرًا فانيًا ولا منعزلاً بصومعة ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناءً وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث : فإما الإسلام وإما الجزية وإما الحرب**» [٣] .

---

(١) أطلق عليها عامة علماء السيرة اسم الغزوة ؛ لكثرة عدد المسلمين فيها ، ولما لها من أهمية بالغة ، ولكنها في الحقيقة ليست بغزوة ، وإنما هي سرية ؛ لأن النبي ﷺ لم يخرج معهم .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٢٦ .

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٢٨ - ٤٢٩) .

وَدَاعُ الجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ وَبُكَاء ابنِ رَوَاحَةَ :

لما تجهز الجيش وأتم استعداده توجه الرسول ﷺ والمسلمون يودعون الجيش ، ويرفعون أكف الدراعة لله - عز وجل- أن ينصر إخوانهم المجاهدين ، لقد سلموا عليهم وودعوهم بهذا الدعاء : دفع الله عنكم ، وردكم صالحين غانمين .

ولما ودع الناس عبد الله بن رواحة وسلموا عليه بكى وانهمرت الدموع من عينيه ساخنة غزيرة ، فتعجب الناس من ذلك وقالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال : والله ما بى حب الدنيا وصبابة ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ، يذكر فيها النار : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم: ٧١] فلست أدرى كيف بى بالصدر بعد الورود؟ فقال لهم المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فراغ تقذف الزبدا
أو طعنه بيدى حرّان مُجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثى ... أرشده الله من غازٍ وقد رشدا[1]

تَخَلُّفُ ابنِ رَوَاحَةَ :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فِي سَرِيَّةٍ فَوَافَقَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَغَدَا أَصْحَابُهُ فَقَالَ أَتَخَلَّفُ فَأُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ فَلَمَّا صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَآهُ فَقَالَ : «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَغْدُوَ مَعَ أَصْحَابِكَ؟» فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ مَعَكَ ثُمَّ أَلْحَقَهُمْ قَالَ : «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَدْرَكْتَ فَضْلَ غَدْوَتِهِمْ» .

ثم إن القوم تهيأوا للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ يودعه فقال :

يثبت الله ما أتاك من حُسن ... تثبيت موسى ونصرًا كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلةً ... فراسة خالفتهم فى الذى نظروا
أنت الرسول فمن يُحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر[2]

تَحَرُّكُ الجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ وَوُصُولُهُ مَعَانَ :

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم ، قال عبد الله

---

(١)السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٢٩) .
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٥٢٧ - ٥٢٨ .

بن رواحة :

خَلَـف الـسلام علـى امـرئ ودعته ... فى الـنخل خـير مـشيع وخلـيل

ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب ، من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلىٍّ مائة ألف منهم .

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ؛ يفكرون فى أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ؛ فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

فشجع عبد الله بن رواحة الناس وقال : يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا بقوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا ؛ فإنما هى إحدى الحسنين ، إما ظهور ، وإما شهادة ، فمضى الناس إلى ما دعا إليه عبد الله بن رواحة[١] .

الجَيْشُ الإِسْلَامِيُّ يَتَحَرَّكُ نَحْوَ العَدُوِّ :

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامى ليلتين فى معان تحركوا إلى أرض ، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها : مشارف ، ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى مؤتة فعسكروا هناك وتعبأوا للقتال ، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذرى ، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصارى[٢] .

بِدَايَةُ القِتَالِ وَتَنَاوُبُ القُوَّادِ :

وهناك فى مؤتة التقى الفريقان ، وبدأ القتال المرير ثلاثة ألف رجل يواجهون هجمات مائتى ألف مقاتل ، معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة ، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب .

أخذ الراية زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ وجعل يقاتل بضراوة بالغة وبسالة ؛ لا يوجد لها نظير إلا فى أمثاله من أبطال الإسلام ، فلم يزل يقاتل ويقاتل ؛ حتى شاط فى

---

(١) ابن هشام (٢ / ١٢٠ - ١٢١) .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٢٩ .

رماح القوم وخر صريعًا ، وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبى طالب وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير ؛ حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ولم يزل بها حتى قطعت شماله ، فاحتضنها بعضديه فلم يزل رافعًا إياها ؛ حتى قتل ، يقال : إن روميًّا ضربه ضربة قطعته نصفين ، وأثابه الله بجناحيه جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء ؛ ولذلك سمى : جعفر الطيار ، وبجعفر ذى الجناحين .

وقد استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، ولقد أثخن - رضى الله عنه- بالجراح إذا بلغ عدد جراحه بضعًا وتسعين بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم ، وليس من بينها جرح فى ظهره بل كلها فى صدره .

روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ : أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلَى وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ .

وبعد استشهاد جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وتقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلنه أو لتكرهنه
إن أجلب[1] الناس وشدوا الرنة[2] ... ما لى أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة فى شنة

وقال أيضًا :

يا نفس إلا تقتلى تموتى ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلى فعلها هُديت

ثم نزل فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك ؛ فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهى منه نَهْسَة ، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه

---

(١) أجب الناس: صاحوا واجتمعوا .
(٢) الرنة: صوت ترجيع شبه البكاء .

فتقدم فقاتل حتى قتل .

وحينئذ تقدم رجل من بنى عجلان اسمه: ثابت بن أقرم ؛ فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا: أنت ، قال: ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريرًا ، فقد روى البخارى عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية ، وفى لفظ آخر: لقد دق فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وصبرت فى يدى صفيحة لى يمانية[1] .

النَّبِيُّ ﷺ ينْعى القَادَةَ الثَّلاثَةَ لِلنَّاسِ:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ فَقَالَ : «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»[2] .

ذَكَاءُ وَفِطْنَةُ خَالِدٍ:

لقد نجح خالد فى الصمود أمام جيش الرومان طول النهار فى أول يوم من القتال ، وكان يشعر بمسيس من الحاجة إلى مكيدة حربية تلقى الرعب فى قلوب الرومان ؛ حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة ، فقد كان يعرف حينئذ أن الإفلات من براثنهم صعب جدًّا ، لو انكشف المسلمون وقام الرومان بالمطاردة .

فلما أصبح اليوم الثانى غيَّر أوضاع الجيش ، وعبأه من جديد فجعل مقدمته ساقه وميمنته ميسرته ، وعلى العكس فلما رآها الأعداء أنكروا حالهم ، وقالوا : جاءهم مدد فرعبوا ، وصار خالد - بعد أن تَرَاءَى الجيشان وتناوشا ساعة- يتأخر المسلمون قليلاً قليلاً مع حفظ نظام جيشه ، ولم يتبعهم الرومان ظنًّا منهم أن المسلمين يخدعونهم ، ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم فى الصحراء .

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده ، ولم يفكر فى القيام بمطاردة المسلمين ، ونجح المسلمون

---

(١) الرحيق المختوم ٣٣٥ - ٣٣٦ ، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٣٠ - ٤٣٢) .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٣١ .

فى الإنحياز سالمين حتى عادوا إلى المدينة[١] .

قَتْلَى الفَرِيقَيْنِ:

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً ، أما الرومان فلم يعرف عدد قتلاهم ؛ غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم[٢] .

مَوْقِفُ أَهْلِ المدِينَةِ مِنَ الجَيْشِ:

لما دنا الجيش من حول المدينة تلقاهم الرسول ﷺ والمسلمون ، ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة فقال : «**خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر**» فأتى بعبد الله فأخذه ، فحمله بين يديه وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون : يا فرار فررتم فى سبيل الله ﷺ فقال ﷺ : «**ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله**» [٣] .

الدُّرُوسُ المسْتَفَادَةُ:

تنطوى هذه الغزوة على العديد من الدروس والعبر منها ما يلى:

١ - إن هذه المعركة وإن لم يحصل بها المسلمون على الثأر ؛ لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين ، إنها ألقت العرب كلها فى الدهشة والحيرة ، فقد كان الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض ، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس فكان لقاء هذا الجيش الصغير ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم- مائتا ألف مقاتل ، ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تُذكر ، كان كل ذلك من عجائب الدهر ، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته ، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله ، وأن صاحبهم رسول الله حقًّا ، ولذلك نرى القبائل اللدودة التى كانت لا تزال تثور على المسلمين ، جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام فأسلمت بنو سليم ، وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرها .

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامى مع الرومان ، فكانت توطئة تمهيدًا لفتوح

---

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٣٢ .
(٢) الرحيق المختوم ص ٣٣٧ .
(٣) ابن هشام ٢ / ١٢٦ .

البلدان الرومانية ، واحتلال المسلمين الأراضى البعيدة النائية [١] .

٢- إن أهم ما يثير الدهشة فى هذه الغزوة ، تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الرومان والمشركين والعرب! .

لقد رأيت أن عدد المشركين ومن معهم من الروم ، قد بلغ ما يقرب من مائتى ألف مقاتل! على حين أن عدد المسلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل ، ومعنى ذلك أن عدد المشركين والروم قد بلغوا ما لا يقل عن خمسين ضعفًا من عدد المسلمين! .

وهى نسبة إذا ما تصورتها تجعل رقعة الجيش الإسلامى أمام حشود الروم والمشركين أشبه ما تكون بساقية ماء صغيرة بالنسبة إلى بحر خضم مائج ، هذا إلى ما كان قد جهز به جيش الأعداء من العدة والذخيرة والسلاح ومظاهر الأبهة والبذخ ، على حين أن المسلمين كانوا يعانون من القلة والفقر! .

ومكان الدهشة فى الأمر أن تجد المسلمين بعد هذا كله - وهم سرية ليس فيها رسول الله ﷺ - مقبلين غير مدبرين لا يقيمون لكل هذه الحشود الهائلة أمامهم وزنا ، مع أنها - فيما يبدو- لو التفت من حولهم وطوقتهم من جهاتهم ، لانقلبوا إلى ما يشبه نواة صغيرة فى جوف قطعة أرض سوداء .

ثم إن مكان الدهشة بعد ذلك أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليم المتلاطم ، يقتل أميرهم الأول ثم الثانى فالثالث ، وهم يقتحمون أبواب الشهادة فى نشوة بالغة وإقبال عجيب ؛ حتى يدخل الرعب الإلهى فى أفئدة كثيرة من المشركين ، دون أن يكون له سبب ظاهر ، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير وتُقتل منهم خلائق لا تكاد تحصى! .

ولكن الدهشة كلها تزول ، والعجب ينتهى ، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله والاعتماد عليه واليقين بوعده .

بل إن المدهش بالنسبة للمسلمين أن لا يكونوا كذلك ، والعجيب فيهم حقًا أن يكونوا مسلمين ثم يكون لأرقام العدد والعدة حساب مع ذلك فى أفكارهم ، إلى جانب ما وعد الله به من نصر وتأييد أو جنة ونعيم خالدين! فالمسلمون - كما قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه- لا يقاتلون بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذى

---

(١) الرحيق المختوم ٣٣٧ - ٣٣٨ .

أكرمهم الله به[١].

٣- تمتاز هذه المعركة عن سائر المعارك، بأنها المعركة الوحيدة التى جاء خبرها من السماء؛ إذ نعى النبى ﷺ استشهاد الأبطال الثلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة، بل أخبر النبى ﷺ عن أحداثها وتمتاز أيضًا عن غيرها بأنها الوقعة الوحيدة التى اختار النبى ﷺ لها ثلاثة أمراء على الترتيب زيد بن حارثة، جعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة[٢].

٤- لقد رأيت النبى ﷺ نعى لأصحابه زيدًا وجعفر بن رواحة، وعيناه تذرفان وبين رسول الله ﷺ وبينهم مسافات شاسعة بعيدة!.

وهذا يدل على أن الله - تعالى- قد روى لرسوله الأرض، فأصبح يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام ما حدث أصحابه به، وهى من جملة الخوارق الكثيرة التى أكرم بها حبيبه ﷺ كما يدل هذا الحديث نفسه على مدى شفقته ﷺ على أصحابه، فلم يكن شيئًا قليلاً أن يبكى رسول الله ﷺ وهو واقف فى أصحابه؛ يحدثهم عن خبر هؤلاء الشهداء وبكاءه ﷺ عليهم لا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره، فإن العين لا تدمع والقلب ليحزن كما قال ﷺ، وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الإنسان عليها[٣].

٥- نرى فى موقف الصحابي الجليل ثابت بن أكرم العجلانى، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد بن رواحة آخر الأمراء درسًا عظيمًا يقدمه لنا، ففى ذلك أداء منه للواجب؛ لأن وقوع الراية معناه: هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائدًا، وفى زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد.

ولم يقبل ثابت قول المسلمين: أنت أميرنا، ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل؛ فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله - تعالى- لا يكون فيه أثر لحب الشهرة أو حظ النفس[٤].

٦- ومن الدروس الغالية للأمة أن شجاعة المسلمين وبسالتهم فى هذه المعركة بلغنا حدًا لم تعرفه أُمة معاصرة، وقد أكسبهم هذا الروح العالى؛ إقدامًا حقّر أمامهم كبرياء

---

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٧٣ - ٢٧٤.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٣٥).
(٣) فقه السيرة للبوطي ص ٢٧٥.
(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٣٧).

الأمم التى عاشت مع التاريخ دهرًا، تصول وتجول لا يقفها شيء.

إن الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم، بل هى قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال؛ فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز، وحسبك أن جيش "مؤتة" لما عاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون: يا فرار فررتم فى سبيل الله، إن أولئك الصغار الأغرار، يرون انسحاب خالد ومن معه فرارًا يقابل بحثو التراب، أى جيل قوى نابه هذا الجيل الذى صنعه الإيمان بالحق؟ أى نجاح بلغته رسالة الإسلام فى صياغة أولئك الأطفال العظام من آباؤهم؟ من أمهاتهم؟ كيف كان الأباء يربون؟ وكيف كانت الأمهات يدللن؟.

إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس[١].

٧- وفى النهاية لا بد أن نعرف أن النصرة كانت ملازمة لأصحاب النبىﷺ على الرغم من قلة عددهم وعدتهم؛ لأنهم كانوا يتحركون بعقيدة أشد رسوخًا من الجبال الراسيات، أما نحن لما تركنا أصل عزنا ونبع شرفنا ومعين كرامتنا وضعفت العقيدة فى قلوبنا، وإذا اليهود الأقذار يسفكون دماءنا، وينتهكون أعراضنا ومقدساتنا على الرغم من قلة عددهم وكثرة عددنا.

وهكذا كما أخبر النبيﷺ حيث قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**» فَقَالَ قَائِلٌ: «**وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟**» قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**».

فيا ليتنا نأخذ العبرة والعظة من غزوة مؤتة؛ لنعود إلى العقيدة الصافية التى كانت بإذن الله سببًا فى نصرة أصحاب النبىﷺ وستكون سببًا لنصرتنا، إذا عادت الأمة إلى الله - عز وجل- وتمسكت بتلك العقيدة الراسخة[٢].

* * *

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٥٣٣ - ٥٣٤.

(٢) المصدر السابق ٥٣٦.

سَرِيَّةُ ذَاتِ السَّلاسِلِ

لما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام في معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة، توقع الفرقة بينهما وبين الرومان وتكون سببًا للائتلاف بينها وبين المسلمين؛ حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى.

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بَلِيّ، فبعثه إليهم فى جمادى الآخرة سنة ٨هـ على إثر معركة مؤتة؛ ليستألفهم ويقال: بل نقلت الاستحبارات أن جمعًا من قُضَاعة قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة فبعثه إليه، ويمكن أن يكون السباب اجتمعا معًا.

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه فى ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرسًا، وأمره أن يستعين بمن مر به من بَلِيّ وعذرة وبَلْقَين.

فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا فبعث رافع بن مكيث الجهنى إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى مائتين، وعقد له لواء وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر- وأمره أن يلحق بعمرو أن يكون جميعًا، ولا يختلفا فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مددًا، وأنا الأمير فأطاعه أبو عبيدة فكان عمرو يصلى بالناس[1].

وقاتل المسلمين الكفار وتوغل عمرو فى ديار قضاعة التى هربت وتفرقت وانهزمت، ونجح عمرو فى إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشام وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى، ودخول قبائل أخرى فى حلف المسلمين، وإسلام الكثيرين من بنى عبس وبنى مرة وبنى ذبيان، وكذلك فزارة وبنى سليم وبنى أشجع، وأصبح المسلمون هم الأقوى فى شمال بلاد العرب[2].

وقيل: إنها سميت ذات السلاسل؛ لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض بالسلاسل؛ مخافة أن يفروا، وقيل: لأن بها ماء يقال له: السلسل، وقال ابن سعد: إنها

---

(١) الرحيق المختوم ص ٣٣٨.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٤١).

وراء وادى ذي القرى وبينها ومن المدينة عشرة أيام[١] .

الدَّرْسُ المُسْتَفَادُ مِنَ السَّرِيَّةِ :

الدرس الذى نستفيده من هذه السرية ، أنه عندما وصل المدد الذى بعثه رسول الله ﷺ بقيادة أبى عبيدة بن الجراح لجيش عمرو فى ذات السلاسل ، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس وينقدم عمرو ، فقال له عمرو: إنما قدمت عليَّ مددًا لى ، وليس لك أن تؤمنى ، وأنا الأمير وإنما أرسلك النبى ﷺ إليَّ مددًا ، فقال المهاجرون: كلا بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه ، فقال عمرو: لا بل أنتم مدد لنا ؛ فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف ، وكان حسن الخلق لين الطبع قال: لتطمئن يا عمرو ، وتعلمن أن آخر ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ : «**إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا**» وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنك ، فأطاع أبو عبيدة فكان عمرو يصلى بالناس .

لقد أدرك أبو عبيدة - رضى الله عنه- أنّ أي اختلاف بين المسلمين فى سرية ذات السلاسل ، يؤدى إلى الفشل ، ومن ثم تغلب العدو عليهم ، ولهذا سارع إلى قطع النزاع وانضم جنديًّا تحت امرأة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرسول ﷺ : «**لا تختلفا**» [٢] فيا ليتنا نمتثل لأمر الرسول ﷺ ولا نختلف .

سَرِيَّةُ أَبِى قَتَادَةَ إِلَى خَضْرَةَ:

كانت هذه السرية فى شعبان سنة٨هـ وذلك ؛ لأن بنى غطفان كانوا يحشدون فى خضرة ، وهى أرض مُحَارب بنجد - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة فى خمسة عشر رجلاً فقتل منهم وسبى وغنم ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة[٣] .

فَتْحُ مَكَّةَ

تَارِيخُ الغَزْوَةِ وَأَسْبَابُهَا :

كانت غزوة فتح مكة فى شهر رمضان سنة ٨هـ[٤] .

وسببها: أن بندًا من بنود معاهدة الحديبية يفيد أن من أحب أن يدخل فى عقد

---

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٣٧ .
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٤٢) .
(٣) الرحيق المختوم ص ٣٣٩ .
(٤) فقه السيرة للبوطي ص ٢٧٦ .

محمد ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين تعتبر جزءًا من ذلك الفريقين ، فأى عدوان تتعرض له أى من تلك القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريقين .

وحسب هذا البند دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر فى عهد قريش وصارت كل من القبيلتين فى أمن من الأخرى ، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتواترت فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ووقعت هذه الهدنة وأمن كل فريق من الآخر ، اغتنمها بنوبكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلي فى جماعة من بنى بكر فى شهر شعبان سنة ٨هـ ، فأغاروا على خزاعة ليلاً ، وهم على ماء يقال له: "الوتير" فأصابوا منهم رجالاً ، وتناوشوا واقتتلوا وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل ؛ حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك ، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بنى بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلعمرى إنكم لتَسرقُون فى الحرم ؛ أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ . ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى ، وإلى دار مولى لهم يقال له: رافع .

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعى فخرج ؛ حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه ، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال:

يـــا رب إنى ناشـــدٌ محمـــدًا ... حلفـــنا وحلـــف أبـــيه الأتلـــدا[1]
قـد كنـتم ولـدًا وكـنا والـدًا[2] ... ثُمَّـــة أســـلمنا ولم ننـــزع يـــدًا
فانـــصر هـــداك الله نـــصرًا أبـــدًا ... وادع عـــباد الله يأتـــوا مـــددًا
فـــيهم رســـول الله قـــد تجـــردا ... أبـــيض مـــثل الـــبدر يـــسمو صُـــعُدا
إن ســـيم خـــسفًا وجهـــه تـــربَّدا ... فى فـــيلق كالبحـــر يجـــرى مُـــزْبَدا
إن قريـــشًا أخلفـــوك المـــوعدا ... ونقـــضوا ميـــثاقك المـــؤكدا
وجعلـــوا لى فى كَـــدَاء رصـــدا ... وزعمـــوا أن لـــستُ أدعـــو أحـــدًا
وهـــم أذل وأقـــل عـــددًا ... هـــم بيَّـــتُونا بالـــوتير هُجَّـــدًا

وقتلونا رُكَّعًا وسُجَّدًا

---

(١) الأتلدا: القديم يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبين بني هاشم منذ عهد عبد المطلب .

(٢) يشير إلى أن أم عبد مناف وهي جي زوجة قصي - كانت من خزاعة .

فقال رسول الله ﷺ : «نصرت يا عمرو بن سالم» ثم عرضت له سحابة من السماء فقال: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب» [١] .

ذَهَابُ ابنِ وَرْقَاء إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَمَعْرِفَةُ أَبِي سُفْيَانَ بِأَمْرِهِ :

ثم خرج بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة ؛ حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بما أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة فقال رسول الله ﷺ : «كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم؛ ليشد العقد ويزيد فى المدة» .

ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه ؛ حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعُسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ؛ ليشد العقد ويزيد فى المدة ، وقد وهبوا الذى صنعوا ؛ فلما لقى أبو سفيان بديل بن ورقاء قال : من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ قال : تسيرت فى خزاعة فى هذا الساحل ، وفى بطن هذا الوادى قال : أو ما جئت محمدا؟ قال : لا ، فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن جاء بديل المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيه النوى فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمدًا [٢] .

قُدُومُ أَبِي سُفْيَانَ المَدِينَةَ لِلصُّلْحِ وَإِخْفَاقُهُ :

وقدم أبو سفيان المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، قال : والله لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئًا ، ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ، فقال : «ما أنا بفاعل» ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذَّرّ لجاهدتكم به ، ثم خرج فدخل على علي بن أبى طالب وعنده فاطمة ، وحسن ، غلام يدب بين يديها ، فقال : يا عليُّ ، إنك أمس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما

---

(١) الرحيق المختوم ٣٤٠ - ٣٤١ .
(٢) ابن هشام (٢ / ١٣٠ - ١٣١) .

جئت خائبًا ، فاشفع لى إلى رسول الله ﷺ فقال : ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمر بُنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، قالت : والله ما بلغ منى ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله ﷺ ، قال : يا أبا الحس . . إنى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى ، قال : والله ما أعلم لك شيئًا يغنى عنك شيئًا ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم ألحق بأرضك قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئًا ، قال : لا والله ما أظنه ؛ ولكنى لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ثم ركب بعيره فانطلق .

فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك؟ قال : جئت محمدًا فكلمته فوالله ما ورد على شيئًا ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرًا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم ، وقد أشار على بشيء صنعته ، فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئًا أم لا؟ قالوا : وبم أمرك قال أمرنى أن أجير بين الناس ، ففعلت قالوا : فهل أجاز ذلك محمد؟ قال : لا ، قالوا : ويلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، فما يُغنى عنك ما قلت ، قال : لا والله ما وجدت غير ذلك[1] .

وتشير بعض الروايات إلى أن النبى ﷺ أرسل إلى قريش يخيرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من خلف بنى بكر ، فاختارت الحرب ثم ندمت فبادرت إلى إرسال أبي سفيان كما أسلفنا[2] .

الاسْتِعْدَادُ لِفَتْحِ مَكَّةَ :

أمر رسول الله ﷺ بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة - رضى الله عنها- وهى تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ فقال : أى بنية ، أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه قالت : نعم ، فتجهز قال : فأين ترينَه يريد؟ قالت : لا ، والله ما أدرى ، ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال :

---

(١) ابن هشام (٢ / ١٣١ - ١٣٢) ، الرحيق المختوم ٣٤١ - ٣٤٢ .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٤٣ .

«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش؛ حتى نبغتها فى بلادها» فتجهز الناس[١].

وزيادة فى الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال؛ تحت قيادة أبى قتادة بن ربعى إلى بطن إضم، فيما بين ذى خشب وذى المروة، على ثلاثة بُرُد من المدينة فى أول شهر رمضان٨هـ؛ ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها؛ حتى إذا وصلت حينما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة فسارت إليه حتى لحقته.

وكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتابًا؛ يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قريشًا، فجعلته فى قرون رأسها ثم خرجت به وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب[٢].

عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ قَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ فَقُلْنَا أَخْرِجِي الْكِتَابَ فَقَالَتْ مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ فَقُلْنَا لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا حَاطِبُ مَا هَذَا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلا ارْتِدَادًا وَلا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ صَدَقَكُمْ قَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الممتحنة: ١][٣].

---

(١) ابن هشام ٢ / ١٣٢.

(٢) الرحيق المختوم ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ٥٤٤ - ٥٤٥.

تَحَرُّكُ الجَيْشِ الإِسْلَامِيّ نَحْوَ مَكَّةَ :

غادر رسول الله ﷺ المدينة قاصدًا مكة فى العاشر من رمضان سنة٨ هـ ، ومعه عشرة آلاف من المسلمين ، وقد استخلف على المدينة أبارُهم ، كلثوم بن حصين بن عتبة ابن خلف الغفارى ، ولما كان بالجحفة لقيه عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرًا بعياله كما لقيه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة بتنية العقاب ، فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه ، فكلمته أم سلمة فقالت : يا رسول الله ﷺ ابن عمك وابن عمتك وصهرك فقال : «**لا حاجة لى فيهما، أما ابن عمى، فهتك عرضى، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال**» .

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبى سفيان بن الحارث ابن له فقال : والله ليأذن رسول الله ﷺ أو لأخذن بيد ابنى هذا ، ثم لنذهب فى الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما فدخلا عليه فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال [١]:

لعمرك إنى حين أحمل رايةً ... لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليلة ... فهذا أوانى حين أُهْدَى فأَهْتدى

هدانى هاد غير نفسى ودلّنى ... على الله من طردْتُ كل مُطرَّدِ

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طرَّدتَنى كل مُطرَّد[٢] .

الجَيْشُ الإِسْلَامِيّ يَنْزِلُ بِمَرِّ الظَّهْرَان :

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم والناس صيام ؛ حتى بلغ الكُدَيْد وهو ماء بين عُسْفَان وقُدَيد فأفطر وأفطر الناس معه ، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران - وادى فاطمة- نزله عشاء ، فأمر الجيش فأوقدوا النيران فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه[٣] .

إِسْلَامُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى يَدِ العَبَّاسِ رضى الله عنه :

لما نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران ، قال العباس : واصباح قريش ، والله لئن دخل

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٥٣) بتصرف .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٤٦ .

(٣) الرحيق المختوم ص ٣٤٤ .

رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر ، قال : فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك ، فقلت : لعلي ألقى بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ؛ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

قال : فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كاليوم قط نيرانًا ولا عسكرًا ، قال يقول بديل : هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب [1] ، قال : يقول أبو سفيان : خزاعة ، والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة فعرف صوتي فقال : أبو الفضل ، فقلت : نعم ، قال مالك: فداك أبي وأمي فقلت : ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله قال : فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال : قلت : «**والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب معي هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك**» ، قال : فركب خلفي ورجع صاحباه فحركت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : من هذا وقام إلي فلما رأى أبا سفيان على عجز الناقة قال: أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيء الرجل البطيء ؛ فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، فقلت : لا والله لا يناجيه الليلة رجل دوني فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلاً يا عمر أما والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا ؛ ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبد مناف ، قال : مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم فقال رسول الله ﷺ : «**اذهب به إلى رحلك يا عباس فإذا أصبح**

---

(١) حمشتها الحرب: أحرقتها .

فائتني به» .

فذهبت به إلى رحلي فبات عندي فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ : «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله» ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأحلمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك هذه! والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن قال العباس : ويحك يا أبا سفيان أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن يضرب عنقك قال : فشهد بشهادة الحق وأسلم .

قلت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئًا ، قال : نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل[1]؛ حتى تمر به جنود الله فيراها» ، قال: فخرجت به ؛ حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه .

قال : ومرت به القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : من هؤلاء فأقول : سليم ، فيقول : ما لي ولسليم ، قال : ثم تمر القبيلة ، قال : من هؤلاء؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ، حتى نفذت القبائل لا تمر قبيلة إلا قال : من هؤلاء؟ فأقول : بنو فلان ، فيقول : ما لي ولبني فلان ؛ حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء [2] فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال : سبحان الله من هؤلاء يا عباس ، قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك بن أخيك الغداة عظيمًا ، قلت : يا أبا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعم إذن قلت النجاء إلى قومك .

فخرج حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة

---

(١) خطم الجبل: أنف الجبل .

(٢) كتيبته الخضراء: لكثرة الحديد وظهوره فيها .

فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت [١] الدسم [٢] الأحمس [٣] قبح من طليعة [٤] قوم قال : ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ؛ فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : ويلك وما تغني دارك ، قال : ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد [٥] .

هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الكَعْبَةَ :

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبي سفيان قال له : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشًا ، فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال : يا رسول الله ﷺ ألم تسمع ما قال سعد؟ قال : **«وما قال»** ؟ فقال : قال كذا وكذا ، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال رسول الله ﷺ : **«بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا»** .

ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى ابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد وقيل : بل دفعه إلى الزبير [٦] .

الجَيْشُ الإِسْلاَمِيّ بِذِي طُوى :

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذى طوى ، وكان يضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ؛ حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل ، وهناك وزع جيشه ، وكان خالد بن الوليد على المجنَّبَةِ اليمنى ، وفيها أسلمُ وسُلَيم وغِفَار ومُزَيْنة وجُهَيْنَة وقبائل من قبائل العرب ، فأمره أن يدخل مكة من أسفلها وقال : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدًا ؛ حتى توافونى على الصفا .

وكان الزبير بن العوام على المجنَّبَةِ اليسرى وكان معه راية رسول الله ﷺ فأمره أن يدخل مكة من أعلاها من كَدَاء ، وأن يغرز رايته بالحَجُون ولا يبرح حتى يأتيه .

---

(١) الحميت: رق السمن وعاء خاص للسمن .
(٢) الدسم: الكثير الودك .
(٣) الأحمس: الشديد وهنا بمعنى الشديد اللحم .
(٤) الطليعة: الذي يحرس القوم .
(٥) ابن هشام (٢ / ١٣٦ - ١٣٩) سيرة الرسول أبو عمار (٥٤٦ / ٥٤٩) .
(٦) الرحيق المختوم ص ٣٤٦ .

وكـان أبو عبيدة على الرحالة والحُسَّر - وهم الذين لاسلاح معهم- فأمره أن يأخذ بطن الوادى ؛ حتى ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ[١] .

الجَيْشُ الإسْلَامِيُّ يَدْخُلُ مَكَّةَ :

وسـار رسول الله ﷺدخل مكة من أعلاها ، وضربت له هنالك قبة ، وتحركت كل كتيـبة من الجيش الإسلامي على الطريق التى كلفت الدخول منها ؛ فأما خالد وأصحابه فلـم يلقهـم أحـد مـن المشركين إلا أناموه ، وقتل من أصحابه من المسلمين كرز بن جابر الفِهْـريّ وخُنَـيْس بـن خالـد بن ربيعة ، كانا قد شذا عن الجيش فسلكا طريقًا غير طريقه فقـتلا جميعًا ، أمـا سـفهاء قـريش فقد تجمعوا مع عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية وسـهيل بـن عمـرو بالخـندمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بنى بكـر يُعـد سـلاحًا قـبل دخـول رسول الله ﷺفقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى؟ قال : لمحمـد وأصحابه ، قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ثم قال :

إن يُقـــبِلُوا الـــيوم فمـــا لى علـــة هـــذا ســـلاحٌ كامـــلٌ وألّـــةُ[٢]

وذُو غِرارَيْن سريع السَّلة[٣]

ثـم شـهد الخـندمة مـع صـفوان وعكـرمة وسهيل بن عمرو ، فلما لقيهم المسلمون ناوشـوهم شـيئًا من قتال فأصابوا من المشركين نحو اثنى عشر رجلاً ، ثم انهزم المشركون وانهـزم حمـاس بـن قـيس صـاحب السلاح ؛ حتى دخل بيته فقال لامرأته : أغلقى علىَّ بابى ، فقالت : وأين ما كنت تقول؟ قال :

إنـك لـو شـهدت يـوم الخـندمة إذ فـر صـفوان وفـر عكـرمة

واسـتقبلتنا بالسيوف المسلمة يقطعـن كـل سـاعد وجمجمـة

ضـربًا فـلا يسمع إلا غمغمـة لهـم نهـيت حولـنا وهمهمـة[٤]

لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة[٥]

---

(١) الرحيق المختوم ص ٣٤٧ .

(٢) الألة: الحربة لها أسنان طويلة .

(٣) ذو غرارين: سيف ذو حدين .

(٤) الغمغمة: أصوات الأبطال والهمهمة: صوت في الصدر ، والنهيت: صياح الأسد .

(٥) الرحيق المختوم ص ٣٤٧ ، سيرة الرسول أبو عمار ٥٥٠ - ٥٥١ .

الرَّسُولُ ﷺ يَدْخُلُ المَسْجِدَ الحَرَامَ وَيُطَهِّرُهُ مِنَ الأَصْنَامِ:

ثم نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله؛ حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس وحول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها.

وكان طوافه على راحلته ولم يكن محرمًا يومئذ، فاقتصر على الطواف فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة فأمر بها ففتحت فدخلها فرأى فيها الصور ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام يستقسمان بالأزلام، فقال: «**قاتلهم الله؛ والله ما استقسما بها قط**» ورأى في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده وأمر بالصور فمحيت[1].

صَلاةُ الرَّسُولِ ﷺ دَاخِلَ الكَعْبَةِ وَخِطَابُهُ أَمَامَ قُرَيْشٍ:

ثم أغلق عليه الباب ومعه أسامة وبلال وعثمان بن طلحة، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف، وجعل عمودين من يساره، وعمودًا عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه، وكان البيت - يومئذ- على ستة أعمدة، ثم صلى هناك ثم دارت في البيت وكبر في نواحيه، ووحد الله ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته فقال: «**لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**» إِلَى هَاهُنَا حَفِظْتُهُ عَنْ مُسَدَّدٍ ثُمَّ اتَّفَقَا: «**أَلا إِنَّ كُلَّ مَأْثُرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُذْكَرُ وَتُدْعَى مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ إِلا مَا كَانَ مِنْ سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَسِدَانَةِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ: أَلا إِنَّ دِيَةَ الْخَطَإِ شِبْهِ الْعَمْدِ مَا كَانَ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا مِائَةٌ مِنَ الإِبِلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ فِي بُطُونِ أَوْلادِهَا. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاسُ رَجُلانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ**

---

(١) الرحيق المختوم ٣٤٧ - ٣٤٨.

قَالَ اللَّهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣] **يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟»** قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : **«فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم؛ اذهبوا فأنتم الطلقاء»** (١) .

اليَوْمُ يَوْمُ بِرٍّ ووَفَاءٍ :

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي - رضي الله عنه- ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية ﷺ فقال رسول الله ﷺ : **«أين عثمان بن طلحة؟»** فدُعي له فقال له : **«هاك مفتاحك يا عثمان؛ اليوم يوم بر وفاء»** .

وذكر ابن سعد في الطبقات عن عثمان بن طلحة قال : كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس فأقبل رسول الله ﷺ يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له ، ونلتُ منه فحلم عني ثم قال : **«يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدي أضعه حيث شئت فقلت : هلكت قريش يومئذ وذلّت»** فقال : بل عمرت وعزت يومئذ ، ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعًا ، ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال ، فلما كان يوم الفتح قال : **«يا عثمان ائتني المفتاح، فأتيته به فأخذه مني، ثم دفعه إليّ»** وقال : خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف ، قال : فلما وليت ناداني فرجعت إليه فقال : ألم يكن الذي قلت لك؟ قال : فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة : لعلك سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت ، فقلت : بلى أشهد أنك رسول الله ﷺ (٢) .

بِلالٌ يُؤَذِّنُ فَوْقَ الكَعْبَةِ :

وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن فوق الكعبة ، وأبو سفيان بن حرب وعتبان بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيدًا

---

(١) ابن هشام (٢ / ١٤٦) ، الرحيق المختوم ص ٣٤٨ ، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٦٥) .
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٥٥٥ - ٥٥٦ .

ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى، فخرج عليهم النبى ﷺ فقال: «**علمت الذى قلتم ثم ذكر ذلك لهم**» فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله ﷺ، والله ما اطَّلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك[1].

قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئ:

ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانى بنت أبى طالب فاغتسل وصلى ثمانى ركعات فى بيتها، وكان ضحى، فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح[2].

وأجارت أم هانى بنت أبى طالب - رضى الله عنها- يوم الفتح رجلاً من المشركين وكان علي يريد قتله، قالت: فجئت النبي ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ قَالَتْ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ ﷺ: «**مَنْ هَذه؟**» فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: «**مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئ**» فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلاً قَدْ أَجَرْتُهُ فُلانَ ابْنَ هُبَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئ**»[3].

إِهْدَارُ النَّبِيِّ ﷺ لِبَعْضِ الدِّمَاءِ:

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إلا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ وَقَالَ: «**اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَطَلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ**» فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَطَلٍ فَأُدْرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا وَكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ وَأَمَّا مَقِيسُ بْنُ

(١) ابن هشام (٢ / ١٤٧ - ١٤٨).
(٢) الرحيق المختوم ص ٣٤٩.
(٣) فقه السيرة للبوطي ص ٢٨١.

صُبَابَةَ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ: أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا فَقَالَ عِكْرِمَةُ وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ الْبَحْرِ إِلا الاخْلاصُ لا يُنَجِّينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا فَجَاءَ فَأَسْلَمَ وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايِعْ عَبْدَ اللَّهِ قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلاثًا كُلَّ ذَلِكَ يَأْبَى فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلاثٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : «**أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ**» فَقَالُوا وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فِي نَفْسِكَ هَلا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ قَالَ: «**إِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ**» .

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة فقتله علي .

وأما هبَّار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت فنخس بها حتى سقطت على صخرة ، وأسقطت جنينها ، ففر هبار يوم مكة ثم أسلم وحسن إسلامه ، وأما القينتان فقتلت إحداهما ، واستؤمن للأخرى فأسلمت كما استؤمن لسارة وأسلمت .

قال ابن حَجَر : وذكر أبو مَعْشَر فيمن أهدر دمه الحارث بن طُلاَطِل الخزاعي ، قتله علي ، وذكر الحاكم أيضًا ممن أهدر دمه كعب بن زُهَيْر ، وقصته مشهورة ، وقد جاء بعد ذلك وأسلم ومدح ، ووَحْشِيّ بن حرب ، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، وقد أسلمت ، وأرنب مولاة ابن خطل أيضًا قتلت ، وأم سعد قتلت فيما ذكر ابن إسحاق : فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة ، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القينتان ، اختلف في اسمهما أو باعتبار الكنية واللقب[1] .

إِسْلاَمُ بَعْضِ رِجَالِ قُرَيْشٍ

(١) الرحيق المختوم ٣٤٩ - ٣٥٠ .

١- إِسْلامُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرو:

لما دخل النبى ﷺ مكة أغلق سهيل بن عمرو عليه بابه، وأرسل إلى ابنه عبد الله أن يطلب له الجوار من النبى ﷺ فذهب سهيل إلى النبى ﷺ طالبًا الجوار لأبيه، فأمنه رسول الله ﷺ فقال سهيل: كان والله برًّا صغيرًا وكبيرًا، وخرج سهيل مع النبى ﷺ إلى حنين وهو على شركة حتى أسلم بالجعرانة[١].

٢- إِسْلامُ صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ:

لم يكن صفوان ابن أمية ممن أهدر دمه، لكنه بصفته زعيمًا كبيرًا من زعماء قريش خاف على نفسه، وفر فاستأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول الله ﷺ فأمنه، وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جده إلى اليمن، فرده فقال لرسول الله ﷺ اجعلنى بالخيار شهرين، فقال: «**أنت بالخيار أربعة أشهر**»[٢].

وخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه فأعاروه سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعًا أو كرهًا، قال رسول الله ﷺ «**عارية مؤداة**»، فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ حملها إلى حنين فشهد حنينًا والطائف، ثم رجع رسول الله إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان جعل صفوان ينظر إلى شعب ملئ نعما وشاء ورعاء، فأدام النظر إليه ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: «**أبا وهب يعجبك هذا الشعب**»، قال: نعم، قال: «**هو لك وما فيه**»، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسو الله[٣].

٣- إِسْلامُ أَبِي قُحَافَةَ:

قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما: لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده فلما رآه رسول الله ﷺ قال:

---

(١) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٤٧٥.
(٢) الرحيق المختوم ص ٣٥٠.
(٣) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٤٧٦ - ٤٧٧.

«هلا تركت الشيخ في بيته حتى آكون أنا آتيه فيه؟» قال أبو بكر : يا رسول الله ﷺ هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت ، قالت : فأجلسه بين يديه ثم مسح على صدره ، ثم قال له : «أسلم» ، فأسلم قالت : فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة[١] ، فقال رسول الله ﷺ : غيروا هذا من شعره ، ويروى أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه[٢] .

٤- إِسْلاَمُ فُضَالَةَ بنِ عُمَيْرٍ:

أراد فضالة بن عمير قتل النبى ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : «أفضالة» ؟ قال : نعم يا رسول الله ﷺ ، قال : «ماذا كنت تحدث به نفسك» ، قال : لا شيء ، كنت أذكر الله فضحك النبى ﷺ ثم قال : «استغفر الله ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه» فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه[٣] .

خُطْبَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي اليَوْمِ الثَّانِي مِنَ الفَتْحِ:

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتْحِ مَكَّةَ وقال[٤]: «لا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا، إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلا يَلْتَقِطُ إِلا مَنْ عَرَّفَهَا وَلا يُخْتَلَى خَلاهَا فَقَالَ الْعَبَّاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلا الإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ فَقَالَ: إِلا الإِذْخِرَ» [٥] .

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من نبي ليث بقتيل لهم في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد : «يَا مَعْشَرَ خُزَاعَةَ ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ الْقَتْلِ فَقَدْ كَثُرَ أَنْ يَقَعَ لَئِنْ قَتَلْتُمْ قَتِيلاً لأَدِيَنَّهُ فَمَنْ قُتِلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِنْ شَاءُوا فَدَمَ

---

(١) ثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر يشبه الشيب .
(٢) السيرة النبوية للصلابي ٢ / ٤٧٩ .
(٣) ابن هشام ٢ / ١٥١ .
(٤) رواه مسلم ١٣٥٣ .
(٥) الإذخر: نبات عشبي من فصيلة النجيليات له رائحة ليمونية عطرة .

فَاتِلِـهِ وَإِنْ شَـاءُوا فَعَقْلُـه» وفي رواية : فقام رجل من أهل اليمن يقال له : أبو شاة فقال : اكتب لي يا رسول الله ، فقال ﷺ : **«اكتبوا لأبي شاة»** [(١)] .

المحْيَا مَحْيَاكُم وَالممَاتُ مَمَاتُكُمْ:

قال أبو هريرة : . . أتى رسول الله ﷺ الصفا فعلاه ؛ حيث ينظر إلى البيت فرفعه يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ويدعوه ، قال: والأنصار تحته ، فَقَالَتْ الأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَجَاءَ الْوَحْيُ وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لا يَخْفَى عَلَيْنَا فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ»** قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: **«قُلْتُمْ أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِه»** قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَاكَ قَالَ: **«كَلا إِنِّي عَبْدُ اللَّه وَرَسُولُهُ هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ»** فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلا الضِّنَّ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ»** [(٢)] [(٣)] .

أَخْذُ البَيْعَةِ:

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين تبين لأهل مكة وعلموا أن لا سبيل إلى الكفاح إلا الإسلام ، فأذعنوا له واجتمعوا للبيعة فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس ، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

وفى المدارك : روى أن النبى ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء وهو على الصفا ، وعمر قاعد أسفل منه ، يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متنكرة ؛ خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزة ، فقال رسول الله ﷺ : «أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئًا» فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئًا .

---

(١) الرحيق المختوم ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٢) أخرجه مسلم ١٧٨٠ .

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٥٠ .

فقال رسول الله ﷺ : «**ولا تسرقن**» فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح ؛ فإن أنا أصبت من ماله هنات؟ فقال ابو سفيان : وما أصبت فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال : «**وإنك لهند؟**» قالت : فاعف عما سلف يا نبى الله عفا الله عنك ، فقال : «**ولا يزنين**» فقالت : أو تزنى الحرة؟ فقال : «ولا يقتلن أولادهن» فقالت : ربيناهم صغارًا وقتلتموهم كبارًا ، فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر- فضحك عمر ؛ حتى استلقى فتبسم رسول الله ﷺ قال : «**ولا يأتين ببهتان**» ، فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : «**ولا يعصينك فى المعروف**» فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك ، ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول : كنا منك فى غرور .

وفي الصحيح: قَالَتْ جَاءَتْ هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ خِبَاءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ ثُمَّ مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَعِزُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ ، قَالَتْ: وَأَيْضًا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ قَالَتْ[1]: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ ، فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُطْعِمَ مِنْ الَّذِي لَهُ عِيَالَنَا ، قَالَ: «**لا أُرَاهُ إلا بِالْمَعْرُوفِ**» [2] .

أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ :

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [3]: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟**» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**» [4] .

---

(١) رواه البخاري ٥٣٥٩ .

(٢) الرحيق المختوم ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٧٥ .

(٤) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٦٣ .

إِقَامَتُهُ ﷺ بِمَكَّةَ وَعَمَلُهُ فِيهَا:

نزل رسول الله ﷺ بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين؛ فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَنْزِلُ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟ فَقَالَ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ» وَكَانَ عَقِيلٌ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ هُوَ وَطَالِبٌ أخوه وباع الدور كلها، وَلَمْ يَرِثْهُ جَعْفَرٌ وَلا عَلِيٌّ شَيْئًا لأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ، وأبو طالب مات كافرًا[1].

وأقام الرسول ﷺ بمكة تسعة عشر عامًا يجدد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة فكسرت كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره[2].

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٨٦).
(٢) الرحيق المختوم ص ٣٥٢.

السَّرَايَا وَالبُعُوثُ

١ـ سَرِيَّةُ خَالِد بنِ الوَلِيدِ إِلَى العُزَّى:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من شهر رمضان ليهدمها، فخرج إليها فى ثلاثين فارسًا من أصحابه؛ حتى انتهوا إليها فهدمها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: هل رأيت شيئًا؟ قال: «لا»، قال: فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عجوز عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجز لها باثنتين، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «**نعم تلك العزى وقد أيست أن تعبد فى بلادكم أبدًا، وكانت بنخلة وكانت لقريش وجميع بنى كنانة، وكانت أعظم أصنامهم وكان سدنتها بنى شيبان**»[(١)].

٢ـ سَرِيَّةُ عَمْرو بنِ العَاصِ إِلَى سُوَاع:

ثم بعث عمرو بن العاص إلى سُواع وهو: صنم لهذيل؛ ليهدمه قال عمرو: فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدمه، فقال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟ قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت على باطل، ويحك فهل يسمع أو يبصر؟ قال: فدنوت منه فكسرته، وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته، فلم نجد فيه شيئًا ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله[(٢)].

٣ـ سَرِيَّةُ سَعْد بنِ زَيْدِ الأَشْهَلِي إِلَى مَنَاة:

ثم بعث سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة فى عشرين فارسًا، وكانت بالمشلَّل عند قُدَيد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل إليها سعد وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها فقال لها السادن: مناة دُونَكِ بعض عُصَاتك، فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره، ولم يجدوا فى خزانته شيئًا[(٣)].

---

(١) الرحيق المختوم ص ٣٥٢.
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٦٤.
(٣) الرحيق المختوم ص ٣٥٢.

٤- سَرِيَّةُ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ:

ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله في شوال ٨هـ إلى بني جذيمة ، فَعَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الاسْلامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأْنَا فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لا أَقْتُلُ أَسِيرِي وَلا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ**» مَرَّتَيْنِ .

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار ، وبعث رسول الله ﷺ عليًّا فَوَدَى لهم قتلاهم وما ذهب منهم ، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر فى ذلك فبلغ النبى ﷺ فقال: «**مهلا يا خالد، دع عنك أصحابى؛ فوالله لو كان أحُد ذهبًا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته**»[1] .

نَتَائِجُ فَتْحِ مَكَّةَ

كان لفتح مكة نتائج كثيرة منها:

١- دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين وزالت دولة الكفر منها وجانت الفرصة للقضاء على جيوب الشرك فى حنين والطائف ومن ثم إلى العالم أجمع .

٢- أصبح المسلمون قوة عظمى فى جزيرة العرب وبعد فتح مكة تحققت أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش فى الإسلام ، وبرزت قوة كبرى فى الجزيرة العربية لا يستطيع أى تجمع قبلى الوقوف فى وجهها ، وهى مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة ؛ لإزالة حكومات الظلم والطغيان وتأمين الحرية لخلق الله ؛ لكى يدخلوا فى دين الله ويعبدوه وحده من دون سواه .

٣- كان لهذا الفتح آثار عظيمة دينية وسياسية واجتماعية ، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمسها كل من يمعن النظر فى هذا الفتح المبارك ، فأما الآثار الاجتماعية فتمثلت فى رفقة ﷺ وحرصه على الأخذ بأيديهم ؛ ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ، وبالوضع الجديد

---

(١) الرحيق المختوم ٣٥٢ - ٣٥٣ .

الذى سيطر على بلدهم وتعيين من يعلمهم ويفقههم فى دينهم ، فقد أبقى معاذ بن جبل - رضى الله عنه- فى مكة بعد انصرافه عنها ؛ ليصلى بالناس ويفقههم فى دينهم ، واما الآثار السياسية فقد عين عتاب بن أسيد أميرًا على مكة ، يحكم فى الناس بكتاب الله ، فيأخذ لضعيفهم وينتصر للمظلوم من الظالم .

وأما الآثار الدينية فإن فتح مكة وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعًا بأن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده فدخلوا فيه أفواجًا .

٤- تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين بعدما ضحوا بالغالى والنفيس ، وحققوا شروط التمكين وأخذوا بأسبابه ، وقطعوا مراحله وتعاملوا مع سننه كسنة الابتلاء والتدافع والتدرج وتغيير النفوس والأخذ بالأسباب ، ولا ننسى تلك الصورة الرائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذنًا بالصلاة بعد أن عذب في بطحاء مكة ؛ وهو يردد: أَحَدٌ . . أَحَدٌ في أغلاله وحديده ، ها هو اليوم قد صعد فوق الكعبة ويرفع صوته الجميل بالأذان ، وهو في نشوة الإيمان[1] .

الدُّرُوسُ المُسْتَفَادَةُ:

تنطوي غزوة فتح مكة على العديد من الدروس المستفادة نذكر منها ما يلي:

١- لما قرر النبي ﷺ فتح مكة بعد ما نقضت قريش عهدها وتحالفت مع بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين ، شرع في الأخذ بالأسباب سواء كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية لتحقيق هدفه ، وهو بذلك يعلمنا سنة الأخذ ؛ لتحقيق مبدأ مباغتة قريش حتى لايصل إليها الخبر فتعد العدة لمجابهته وصده:-

أ- أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر - رضى الله عنه ، أقرب أصحابه إلى نفسه وزوجته عائشة - رضى الله عنها- أحب نسائه إليه ، وهذا المنهج النبوى الحكيم يدلنا على أنه ينبغى على القادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم ؛ لأنهن ربما يذعن شيئًا من هذه الأسرار عن حسن نية فتنقلها الألسن ؛ حتى تصير سببًا فى حدوث كارثة عظيمة .

ب- أنه بعث سرية بقيادة أبى قتادة إلى بطن إضم ، وهذا يوجه القادة إلى أخذ الحذر

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٨٧) .

وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء لتحقيق الهدف والسلامة من كيد الأعداء .

ج- أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء ، ليجرم عدوه من الحصول على المعلومات التى تفيده فى الاستعداد لمجابهة المسلمين .

د- دعاؤهﷺ وتضرعه إلى الله بأخذ العيون والأخبار عن قريش ، وهذا يعلمنا الأخذ بالأسباب ولا ننسى الدعاء والتضرع إلى الله .

هـ- إحباط محاولة تجسس حاطب بن أبى بلتعة لصالح قريش ، وهذه معجزة نبوية للرسولﷺ ، فقد أطلعه الله - عز وجل- على ذلك عن طريق الوحى[١] .

٢- فى قصة إسلام أبى سفيان العديد من الدروس منها:

أ- عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين وأصبح رهن إشارة النبىﷺ كانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يدعى إلى الإسلام ، فتأثر بهذا الموقف ، فلم يملك أن قال: بأبى أنت وأمى يا محمد ، ما أحلمك! وأكرمك وأوصلك! .

وعندما قال العباس للنبىﷺ : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا ، فقال النبىﷺ : «**نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن**،» ففى تخصيص بيت أبى سفيان شيئًا يشبع ما تتطلع إليه نفسه ، وفى هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه ، وهذا الأسلوب يمتص الحقد من قلب أبى سفيان ويبين له أن المكانة التى كانت له عند قريش لن تنتقص شيئًا فى الإسلام ، إن هو أخلص له وبذل في سبيله ، وهذا منهج نبوي كريم على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ، ويعملوا به في تعامله مع الناس .

ب- وفي قول رسول اللهﷺ لعمه العباس عن أبي سفيان: «**أحبسه بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها**» وقد أراد بذلك شن حرب نفسية على قريش وزعيمها لبيان مدى قوة ما وصل اليه الجيش الإسلامي من تسليح وتنظيم ، وبذلك تتحطم أي فكرة في نفوس المكيين للمقاومة وبهذا يتحقق هدف النبيﷺ دون إراقة دماء[٢] .

إنها النبوة ، الكلمة التي جاءت على لسان العباس لأبي سفيان ؛ لتصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أن دعوة النبيﷺ إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة ،

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٤٥٠ - ٤٥٢) باختصار .

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٤٥٧ - ٤٥٨) باختصار .

فهذه الكلمة جاءت عنوانًا لحياة النبي ﷺ من أولها إلى آخرها ، فقد كانت دليلاً ناطقًا على أنه بعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس ، وليس ابتغاء ملك لتفسه في الأرض[١] .

٣- دخل رسول الله ﷺ خاشعًا لله ، وهو يقرأ سورة الفتح ، فكان يرجّع فلا تلاوته لها ، والترجيع كيفية معينة في القراءة يترنم بها القارئ ، وهذا يدل أنه ﷺ كان مستغرقًا في حالة شهود مع الله تعالى أثناء دخوله مكة ، فما كانت لنشوة النصر العظيم إلى نفسه من سبيل ، ولم يكن شيء من التعاظم أو التجبر ؛ ليستولي على شيء من مشاعره ، إنما هو الانسجام التام مع شهود الله والشكر على نصره وتأييده .

ويزيد من تصوير هذا المعنى أنه لما وصل إلى ذي طوى كان يضع رأسه تواضعًا لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل .

وهذا يعني أنه ﷺ كان مندمجًا في حالة من العبودية التامه لله ، إذ رأى ثمرة القيام بأمر ربه ، ونظر إلى نتيجة كل ما قد كان لقيه من العذاب من قومه ، وكيف أن الله أعاده إلى البلدة التي أخرجته عزيزًا منصورًا مكرمًا! .

إنها الساعة التي ينبغي أن تمتلئ بشكر الله وحده ، وينبغي أن يفيض الزمن كله فيها بمعنى العبودية التامة لله تعالى .

وهكذا يجب أن تكون حال المسلمين دائمًا: عبودية مطلقة لله تعالى في السراء والضراء ، في الرخاء والشدة ، عند الضعف والقوة ، وليس من شأن المسلمين إطلاقا أن يتظاهروا بالذل لله تعالى كلما حاقت بهم مصيبة أو كرب ؛ حتى إذا نكشف الكرب وزال الضر أسكرتهم الفرحة ، بل أسكرهم الطغيان عن كل شيء ، ومرّوا من جنب أوامر الله وأحكامه ساهين لاهين ، كأن لم يدعوه ويتذللوا له في كشف ضرٍ مسَّهم! .

٤- لقد كان التدبير الحكيم لرسول الله ﷺ ما أمر به أصحابه من أن يتفرقوا في مداخل مكة ؛ فلا يدخلوها من طريق ومدخل واحد ، وذلك بغية تفويت فرصة القتال على أهل مكة إن أرادو ذلك إذ يضطرون إلى تشتيت جماعاتهم وتبديد قواهم في جهات مكة وأطرافها فتضعف لديهم أسباب المقاومة ومغرياتها .

وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك حقنًا للدماء ما أمكن ، ومن أجل هذا أمر المسلمين أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، وأعلن أن من دخل داره ، وأغلق بابه فهو آمن[٢] .

---

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٢٨٨ .

(٢) فقه السيرة للبوطي ٢٨٨ - ٢٨٩ .

وفي إعلان العفو العام عن أهل مكة بصفة عامة وعن بعض من أهدر دماءهم بصفة خاصة دليل على رحمته ﷺ ورغبته في تأليف قلوبهم على الإسلام، كما أنه لم يُرِدْ أن يتعامل مع مكة كالمناطق الأخرى، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الله تعالى[١].

٥- «**أتشفع في حد من حدود الله؟**» هذه الجملة التي قالها النبي ﷺ لأسامة بن زيد حينما ذهب إليه يشفع عنده في المرأة المخزومية التى سرقت.

وفي ذلك توجيه نبوي للأمة ان تقيم شرع الله على القريب والبعيد عبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الأحكام الإسلامية[٢].

٦- وفي بيعة النساء دليل على اشتراك المرأة مع الرجل على أساس من المساواة التامة في جميع المسئوليات التي ينبغي أن ينهض بها المسلم، ولذلك كان على الخليفة أو الحاكم المسلم أن يأخذ عليهن العهد بالعمل على إقامة المجتمع الإسلامي بكل الوسائل المشروعة الممكنة، كما يأخذ العهد في ذلك على الرجال دون فرق ولا تفاوت.

ومن هنا كان على المرأة المسلمة أن تتعلم شئون دينها كما يتعلم الرجل، وأن تسلك السبل المشروعة الممكنة إلى التسلح بسلاح العلم والوعي والتنبه إلى مكامن الكيد وأساليبه لدى أعداء الإسلام الذين يتربصون به؛ حتى تستطيع أن تنهض بالعهد الذى قطعته على نفسها وتنفذ عقد البيعة الذي في عنقها[٣].

٧- والدرس المهم - أيضًا- لكل من يتعرض لأي ابتلاء أن يصبر ويرضى بقضاء الله ابتغاء وجه الله - عز وجل- على إلى أن يفرج الله كربه، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، كيف أعاده الله - عز وجل- إلى بلدته التي أخرج منها عزيزًا منصورًا مكرمًا؛ بعد أن صبر على العديد من الإيذاءات والاعتداءات، وخاض العديد من الغزوات من أجل تبليغ رسالة الرسول ﷺ ورفع راية: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٤٦٦ - ٤٦٧) بتصرف.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٨١) بتصرف.
(٣) فقه السيرة للبوطي ص ٢٩٦.